التماسيحُ الراقصةُ

(1)

قد يكونُ تسنَّى لك أن تمرّ بهور كوبيلي، في جنوب شرق السهول الريفية لبيونس آيرس، والمعروف باسم (بحيرة التمساح الراقص)، وهو اسم شائع، بيانيًا وتعبيريًا، وإن كان يفتقد الدقة، حسب قول الدكتور (لودفيج بويتوس)؛ فالهورُ والبحيرة هما، بادئ ذي بدء، حيِّزان هيدرو جرافيان لهما صفات محددة. وثانيًا، فإن البحيرة ليست موطنًا لأي نوع من التماسيح، بالرغم من أن التمساح المعروف باسمه العلمي (كايمان ياكاري) منتشر في كل القارة. كما أن ملوحة مياه البحيرة عالية للغاية، ولا يعيشُ ما يستوطنها من نباتات وحيوانات إلا في البحر. لذلك، فإن العثور على 130 تمساحًا بحريًا في تلك البحيرة لا يُعدُّ أمرًا مُستغربًا.

ويُعتبر التمساحُ البحري، المعروف باسم (كروكوديلاس بوروساس)، أكبر الزواحف المعروفة الآن، ويصل طولُه المعتادُ إلى حوالي سبعة أمتار، ويزن أكثر من طن. ويؤكد الدكتور بويتوس أنه قد عاين العديد من هذا النوع من التماسيح البحرية، على امتداد الساحل الماليزي، ووجد أن طولها يتجاوز تسعة أمتار، والتقط لها صورًا يحتفظ بها، تؤكد وجود هذه التماسيح الضخمة. ولكن يصعبُ أن نحدد بدقة ما إذا كانت لتلك التماسيح الأحجامُ التي ينسبها إليها الدكتور بويتوس، وذلك لغياب مرجعيات من مواقع أخرى.

ويتعذَّرُ، بطبيعة الحال، التشكُّكُ في قول رجل يعمل بمهنة رائعة هي البحث العلمي (بالرغم من الإفراط الزخرفي في لغته)، ولكن الصرامة العلمية تستوجبُ التدقيقَ في إثبات صحة المعلومات.

ولابأس في أن يكون لتماسيح بحيرة كوبيللي نفس الصفات التصنيفية لتلك التي تعيش في المياه المحيطة بالهند والصين وماليزيا، ويصحُّ بالتالي أن تسمى تمساحًا بحريًا، أو (كروكوديلي بوروسي)، وإن كان ثمة بعضٌ من الاختلافات التي يضعها الدكتور بويتوس في قسمين: صفات مورفولوجية، وصفات سلوكية.

ويأتي الحجم في مقدمة القسم الأول، فهو الصفة الأهم، أو قل الصفة الوحيدة؛ فبينما يمكن أن يصل طول التمساح الآسيوي إلى سبعة أمتار، فإن ما لدينا في بحيرة كوبيللي يصل طولُه بالكاد، وفي أفضل الحالات، إلى مترين، مع اعتبار أن القياس يكون من طرف الخطم إلى نهاية الذيل.

(2)

وفيما يتعلَّقُ بالسلوكيات، فإن تمساح بحيرة كوبيللي – حسب قول بويتوس – مغرم بالحركات المتوافقة إيقاعيًا، أو بالرقص، حسب التعبير الأبسط الذي يفضله أهلُ كوبيللي.

وكما يعرف الجميعُ، فإن التماسيح ينتفي أذاها طالما وُجدت على اليابس، فتكون كسرب حمام، ولا تستطيع الصيد والقتل إلا وهي في الماء، فهو أساس فعاليتها. إنها تقبض على فريستها بين فكيها المُسنَّنين، وتقوم

بتدويرها في حركة دوامية حتى تموت الفريسة. وأسنان التماسيح لا تمضغُ، فهي ليست مهيَّأة كلِّيَّةً إلا للقبض على كامل ضحيتها، وابتلاعها.

وإن ذهبنا إلى شواطئ بحيرة كوبيللي وشرعنا في إذاعة الموسيقى، بعد أن نكون قد رتبنا مُسبقًا شيئًا مناسبًا للرقص، فسرعان ما سنرى معظم التماسيح، ودعنا لا نقول كلها، تقفز من الماء؛ وما إن تحطُّ على اليابس فإنها تبدأُ ترقصُ على إيقاع النغمة المُذاعة.

وقد استحقت هذه العظاءة، لكل هذه الأسباب التشريحية والسلوكية، أن يعطيها الدكتور بويتوس اسمًا علميًا، هو (كروكوديلاس بوسيلاس سالتاتور).

إن أذواقها متنوعة وانتقائية، ولا يبدو أنها تميز بين الموسيقى القيمة ذات الطابع الجمالي، وتلك التي تفتقد كثيرا للتميز، فالإيقاعات الشعبية تسعدها بما لا يقل عن المؤلفات الموسيقية الموضوعة للباليه.

وهي ترقصُ في وضعية مستقيمة، محتفظةً بتوازنها على ساقيها الخلفيتين، ليصل متوسطُ طولها إلى متر وسبعين سنتيمترًا. ولكي لا تنزلق على الأرض، فإنها ترفع ذيولُها بزاوية حادة، ليصبح موازيًا تقريبًا لأشواكها. وبالوقت ذاته، فإن الأطراف الأمامية، التي يمكن أن نسميها أيدي، تتابع الإيقاعات بإيماءات متنوعة مضحكة، بينما ترسم أسنانها الصفراء ابتسامة عريضة، تنضحُ حماسًا ورضىً.

ولا ينجذبُ بعضُ سكان البلدة لفكرة الرقص مع التماسيح، بينما لا يشاركُهم كثيرون غيرهم هذا النفور. ومن الثوابت لديهم أنهم، في كل يوم سبت، وعند غروب الشمس، يرتدون ثيابهم الاحتفالية ويتجمعون على شاطئ البحيرة، حيث يعدُّ النادي الاجتماعي في كابيللي كل ما هو ضروري من أجل أمسية لا تُنسى. أضف إلى ذلك إمكانية أن يتناول الناسُ عشاءهم في المطعم الذي تأسس غير بعيدٍ عن حلبة الرقص.

(3)

ولا يمكن للتماسيح الراقصة أن تحتضن جسمَ من يراقصها، فأذرعها قصيرةٌ إلى حدٍّ ما. ويضع من يراقص التماسيح، من رجال مهذبين وسيدات فاضلات، يديه على أحد كتفي مراقصه من التماسيح. ولتحقيق ذلك، يجب أن تمتد ذراعا الرجل أو السيدة إلى أقصى حدٍّ، وعلى مسافة محددة، فخطمُ التمساح واضحٌ تمامًا، يستوجبُ توخي الحذر قدر الإمكان.

وبالرغم وقوع حوادث شنيعة، من حين لآخر، مثل بتر أُذُن أو فقأُ كرة عينٍ أو قطع رأس، فينبغي ألا يغيب عن الأذهان أن أنفاس هذه الزواحف بعيدة تمامًا عن أن تكون جذابة، بسبب ما بين أسنانها من بقايا جِيَف.

وحسب ما تقول به أسطورةٌ كوبيليانية، فثمة جزيرة صغيرة تقع في وسط البحيرة، يعيش بها ملك وملكة التماسيح، ويبدو أنهما لم يغادراها أبدًا. ويقول الكوباليون أن عمر كل منهما يزيد على قرنين من الزمان، وأنهما لم

يرغبا أبدًا في المشاركة في الرقصات التي ينظمها النادي الاجتماعي، وربما يرجع ذلك إلى تقدمهما في السن، أو بسبب ما بينهما من هوى.

ولا تتجاوز اللقاءات الشاطئية منتصف الليل، إذ تكون التماسيح عندها قد بدأت تشعر بالتعب، أو ربما تكون ملَّتْ، إضافة إلى شعورها بالجوع، وهي المحظور عليها أن تقترب من المطعم، فترغب في العودة إلى الماء لتبحث عن طعام.

وعندما تغادر التماسيحُ اليابس عائدة إلى الماء، يرجع السيدات والسادة إلى البلدة وقد نال منهم التعبُ، وربما يشعرون ببعض الحزن؛ إلا أنهم يحدوهمُ الأملُ في أن يترك ملك التماسيح، أو ملكتهم، أو هما معًا، جزيرتهما، في اللقاء الراقص التالي، أو ربما في وقت لاحق، لساعات قليلة، للمشاركة في الحفل. فإن تحقق ذلك، فإن كلاً من الرجال الأفاضل يعيش نوعًا من الوهم، يحرص على مداراته، أن يقع عليه اختيار الملكة ليكون هو مُراقصُها؛ ولا يختلف الأمر عند السيدات اللاتي يحلمن بمراقصة الملك.